صغيرة

وقفت على « الرصـــيف » تحت « تندة » المقهى .. صغيرة .. سمراء . ضـامرة ، يرتعش كيانها فى انتفاضات متشنجة من شدة الرطوبة .. وقطرات المطر تنحدر متوالية من فوق رأســها وتبلل جلبابها .. مـدت يدها اليمنى تنثر الميـــاه من فوق شعرها .. بينما يدها اليسرى تسد فوهة «كوز الصفيح» المعـلق بخيـط من « الدوبارة » تحت ابطها حتى لا ينفذ الرذاذ داخله ! ..

ثم أمالت رأسها بحذر واطلت داخل المقهى وجاستها بنظرات متنقلة .

وللتو التمعت فى عينيها احساسات مكتئبة ! ..

بقلم
عبد العال الحمامصى

المقهى خالية من « النفايات » تماما . كانما أقلع عن التدخين كل زبائنها ! .. غريبة ! .. فى مثل هـــذا الوقت عادة تكون المقهى مليئة بالنفايات المتناثرة فى أرجائها ! ..

لابد أن « جـوده » صبى « الأسطى علام » سائق عربة النقل قد سبقها ! .

كل الظروف اليوم تعاكسها ! ..

نفضت رأســها لتزيل قطرات المطر التى تتخلل شعرها . وما زالت الرعشة تسرى فى جسـدها .. ومن جديد انطلقت نظراتها الطائرة تتفرس تحت المناضد . وبين أقدام الزبائن بدون أن تجرؤ على خطوة داخلية واحدة !! .

« المعلم سالم » صاحب المقهى يجلس بجوار « البوفيه » عملاقا يزرع الخوف بنظراته المخيفـــة التى يرهبها الميدان باسره !! .

وارتد بصرها الى الكوز تحت ابطها . فغامت أساريرها بالأسى !! .

ان حصيلتها اليوم من نفايات السجائر لا تكاد تصل الى نصف المطلوب منهـا أن تلتقطه ..

مهما كانت الظـــروف .. لابد أن يكتظ الكوز الى حافته .. والا فالعذاب فى انتظارها ! ..

هذا ما تعرفه جيدا .. لابد أن يمتلىء الكوز تماما .. كل مطلع شمس تسمع كلمات التحـــذير والتهـديد بالعقاب لو عادت بالكوز ناقصا .. آثار العقاب فى كل موضع من جسدها تذكرها بأن النقص معناه اضافة المزيد من هـــذه العلامات !! .

وقعتك الليلة سـوداء يا زينب .. « مندوهة » مغتاظة منك لأنك بالأمس اندمجت مع أطفـال الحارة فى لعبة « العريس والعروسة » ونسيت ابنهـا بجوار باب بيت « أم السـعد » حتى رفسه حمار زوجها فى بطنه وكاد يودى بحياته .. وقعتك سوداء .. ستجدها مندوهـة فرصة .. الليلة .. وتخرج غيظها كدماتا زرقاء فوق جسدك !! .

بعد الظهر عندما أسندت رأسها الى جدار « طاحونة الخواجا برنابا » لتريح قدميها من تعب السير المتواصل بحثـا عن النفايات .. لم تكن تتوقع أن النوم سـوف يدهمهـا .. فلا تصـحو الا و « الشيخ القرنى » يؤذن لصلاة العصر من فوق سطح « زاوية العـارف بالله القرطبى » .. ! ..

لم تنم بارادتهـا .. قضت ليلتها بالأمس أرقة سـاهرة .. خوفا من انتقام مندوهة .. لما حدث لابنها !! .

وانـدفعت الهـواجس تسـوط مشاعرها ..

انها تعرف جيداً .. ما سوف يحدث لها ! .. عندما تعود الى « العشة » بهذا القـدر الذى جمعته من المقـاهى .. والشوارع . والأرصفة !! .

لدرجة أنهـا تفضل أن تبات فوق رصيف « الميـدان » .. فى العراء .. والصقيع .. والحشرات .. ومعاكسات « صبيان موقف عربات الأجرة » على أن تعود الى هناك .. ليتورم صدغها من صفعات أبيها الأعمى .. وشراسـة مندوهة امرأته .. صاحبة « السوابق » خريجة السجون .. « فتوة » حارة القبة !! .

كفت السـماء نهائيا عن اسـقاط مطرها .. وتحركت لتغادر الرصيف ، وهى تقرأ « الفاتحة » فى سرها للشيخ « القرطبى » ولى الله صاحب الكرامات متوسلة اليه بجـاه النبى أن يمنحها مدده .. وبركته .. لتعثر على « كوم » من النفايات يسـد الفراغ الكبير فى كوزها !! .

ولكنها عادت تتوقف من جديد عندما رأت « عمار أفنـدى » يخرج علبـة سجائره ويقـدم منها واحدة للأستاذ « جوزيف » أمين « شـونة بنـك التسليف » الذى يلاعبـه « الطاولة » ويشعل لنفسه واحـدة أخرى !! .. بينما «مدحت» الصغير ابن عمار أفندى يضع صفارته فى فمه ويخرج منها أصواتا تروق زبائن المقهى فيداعبونه بابتساماتهم المشجعة ! ..

وتنبه « المعلم سالم » لوجودها أمام باب المقهى ، فسحب « مبسم الشيشة » من فمـه .. وبسرعة اهتز شاربه . وظهرت « كشرته » الرهيبة .. وزمجر يصرخ فيها :

ـ انت .. يا مقصـوفة الرقبة .. غورى من عندك .. طول النهار قدامى بخلقتـك .. اللى تقطع الخميرة من البيوت ..

وبصق بجوار رجل المنضدة ..

ثم أردف وقد ازدادت كشرته تقطيبا :

ـ « تحركى .. يا وجه النـكد .. دائما تحجلين أمام المقهى مثل أبو الفصاد أمامك البلد واسعة .. جاءتك داهية .. »

انها لا تعرف لماذا يكرهها المعلم سالم لدرجة أنه لا يطيق رؤياها داخل المقهى

او خارجه .. لماذا يبغضها .. وهى لا تتردد أبدا فى قضاء أى حاجة يطلبها منهـــا ... لماذا يمقتهـا الناس .. ويتشاءمون من رؤياها .. ما ذنبها اذا كانت دميمةبشعة الوجه .؟. «مندوهة» امرأة أبيها .. تقول بأنها « طالعـة » لأمها .. ولا تستطيع هى أن تصـدق ذلك .. فهى لم تر أمهـــا أبدا .. ماتت .. بعد ما وضعتها مباشرة .. وهذا ما يجعل النـاس يتشاءمون من نحسها .

« لولا أنها « فقرية » ما كانت أكلت أمها لحظة مولدها » .

دائما تقول لها مندوهة هذه العبارة !!

وتوارت الصـغيرة بعيدا عن نظرات المعلم سالم خلف ضلفة الباب ريثما يلقى عمار افندى والأستاذ كمال بالنفايتين . متمنية أن يقذفا بهما خارج المقهى .. لتتجنب شتائم المعلم وزعيقه ..

ومن ثقب ضلفة الباب ظلت تراقب مصـــير السيجارتين .. عمار افندى يجذب انفاس السيجارة بعصبية وانفعال كدأبه دائما عنـــدما يكون اللعب ليس فى صالحه .. عمار لا يطيق الهزيمـــة أبدا .. رغم أنه غالبا هو الذى يدفع ثمن « الطلبات » سواء كان هو الغالب أم المهزوم !! .

ثم وضع السـيجارة على حافـة المنضدة .. واستغرق فى تفكير عميق . ونظراته تتطاير بين « خانات » الطاولة وأقشطتها .

يا عينى .. لقد أحرقت السيجارة أنامل « مدحت » الصغير .. عنـــدما امتـــدت يده لتمسك بها فى غفلة من والده ..

وصعبت عليها دموع الصغير .. وهى تتفرس فى وجهـــه المتورد .. وشعره الفاحم الطويل وقد تدلت خصلات منه فوق جبهته .. وملابســه الأنيقة .. ما أحـــلاها .. كل ما فيـــه رائع ونظيف ! ..

وراودت قلبها أمنية فى ان تمسح له دموعه .. أن تلمس بيدها شعره .. ان تمر بها فوق نعومة خده .. ستغسل يدها من رماد النفـايات قبل أن تفعل حتى لا تلوث نصاعة وجنته !! .

والتمعت فى عينيهاكآبة عندما وجدت نفسها تقارن بين نفسها وبينه .. هو .. أكثر من يد امتـــدت تربت ظهره .. وتمسح دموعه .. وتهدهده .. ! حتى « عكاشـــة » الجرسون اندفع خارج المقهى واشترى قطعـة حلوى ليسكت بها نحيبه .. وهى .. عنـدما يدوسها حمار .. أو تصـــطدم عفوا برجل فى الطريق .. تمتد الأيادى لتصفعها .. وتنطلق الألسنة تلعنها ! .

وغادر المعلم سـالم المقهى فشعرت بالارتياح .. وانتزعت نفسها من وراء الضلفة .. ودلفت الى الداخل بخطوات متوجسة فى البداية .. ثم فى جرأة عندما وجـــدت عكاشـــة لا يعترض على دخولها ..

ووجدت بعض النفايات بجوار ارجل المنضدة التى يجلس عليها عمار أفندى .. وأخريات كانت تحجبهن المقاعد .. وقبل أن تشرع يدها للالتقاط باغتتها يد ثقيلة تعرفها جيدا .. وأزاحتها فى

عنف ثم اندفعت داخل الكوز واختطفت اغلب ما به ! ..

وتناهت اليها قهقهة الصغير ابن عمار أفندى سعيدة بطرافة ما حدث ! ... دائما يحدث هـــذا .. واجتاح الغيظ المقهور كيانهـــا .. لو كانت ولدا .. لعرفت كيف تؤدب « جـــودة » صبى « الأسطى علام » وتنتقم لكل ما يفعله بها .. لو كانت حتى فى مثل بدانته !! انهـــا لا تعرف من أين يخرج لها جودة باستمرار كأنهـــا تنشق عنـــه الأرض ليفاجأها ويغتصب اغلب ما تكون انفقت يومها فى جمعه من نفايات .. ولا يتورع عن ضربها لو اعترضت أو بدرت منهـــا مقاومة ..

وفوق هذا يستعدى عليها صحابه من صبيان موقف عربات الأجرة يلاحقونها بالأحجار الصغيرة .. وكاماتهم الموجعة التى تعايرها بزوجة أبيها عشيقة كل الرجال !! ..

وسارت مقهورة متخاذلة .. تضرب الارض بخطواتهـــا .. وقـــد انطلقت خواطرها تتخيل ما سوف يقع لها عندما تعود بهـــذا القليل الذى بقى لديها .. والذى لا يمكن أن يفى بشراهة والدها فى التدخين !! .

سوف يمسك بها من شعرها وتنهال عليهـــا صفعاته وركلاته .. وستتبرى منـــدوهة لتضربها فى كل موضع من جسدها .. وتتهمها بأنها قضت يومها فى « الصغرنة » مع عيـــال الموقف .. وأنها من صغرها « طالعة مايصة » لأمها .. وكلما اشتدت ضرباتهـــا عنفا طلب منها الأعمى مدمن « الأفيون » المزيد من الضربات .. لتربيها !! .

ومن خلال هواجسها وجدت نفسها تفكر فى الصغير ابن عمار أفندى .. لماذا ليس لها مثل حياته ؟ .. لماذا ؟! .

« وانكمش » السؤال فى أعماقهـــا مهزوما .. ثم ضـــاع فى دوامة قلقها ومخاوفها .. !

النهار يخبو نوره .. وليست أمامها فرصـــة .. كل شىء ضدها .. حتى « الشـــيخ القرطبى » غاضـــب عليها . ولم يستجب لضراعتها والفاتحـــة التى قرأتها له ليمنحها سره وبركاته !! .

وتوقفت تنتحب فى نشـــيج لاهث متقطع .. تراودها فكرة عـــدم العودة .. ومن بعيد لمحت احدى النفـــايات تلفظ أنفاسها فمسحت دموعها براحة يدها وواصلت سيرها .. ونظراتها الحادة المترصدة تذرع عرض الطريق !! .